

الموعظة الثانية عشرة

الإيثار

هدف الموعظة

تشجيع الناس على الإيثار والعطاء من خلال بيان مصاديقه وآدابه.

محاور الموعظة

1. تعريف الإيثار
2. من مصاديق الإيثار
3. آداب الإيثار

تصدير الموعظة

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾¹.

¹ سورة الحشر، الآية 9.

تمهيد

الإيثار من محاسن الأخلاق الإسلامية، وهو مرتبة راقية من مراتب البذل، ومنزلة عظيمة من منازل العطاء. ويُعدّ الإيثار أحد أبرز الفضائل والقيم الإنسانيّة، حيث وصفته الروايات بأوصاف كريمة من قبيل: «الإيثارُ أَعْلَى المَكَارِمِ»¹، و«الإيثارُ أَشْرَفُ الإِحْسَانِ»²، و«الإيثارُ أَعْلَى الإِيمَانِ»³، و«الإيثارُ أَفْضَلُ عِبَادَةٍ وَأَجَلُّ سَيَادَةٍ»⁴، و«أَعْلَى مَرَاتِبِ الْكَرَمِ الإِيثَارُ»⁵.

تعريف الإيثار

الإيثار لغةً: الإيثار من آثر يُؤثر إيثارًا، بمعنى التقديم والاختيار والاختصاص. فالإيثار مصدر من الجذر «أثر» بمعنى تقديم الشيء⁶.

الإيثار اصطلاحًا: الإيثار أن يقدم غيره على نفسه، في النفع له والدفع عنه، وهو النهاية في الأخوة⁷.

¹ الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق، ص 19.

² المصدر نفسه، ص 33.

³ المصدر نفسه، ص 51.

⁴ المصدر نفسه، ص 29.

⁵ المصدر نفسه، ص 118.

⁶ ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريّا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الإعلام الإسلامي، إيران - قم، 1404هـ، ط 1، ج 1، ص 53.

⁷ الشريف الجرجاني، علي بن محمّد بن علي، التعريفات، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، 1983م - 1403هـ، ط 1، ص 40.

جاء استعمال لفظ الإيثار ومشتقاته في النصوص الإسلامية، بمعنيين متضادين، إذ يُستعمل تارةً بمعنى التقديم الإيجابي، الذي يُعدّ بدوره من أعظم القيم الأخلاقية وأسمائها، كما في قوله - تعالى -: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾¹. كما يستعمل بمعنى التقديم السلبي، كما يقول -تعالى -: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾². ومن هنا، يُفهم أنّه ليس مطلق التقديم هو ما يحقق الإيثار المطلوب في الآيات والروايات؛ لأنّ التقديم في غير محله لا يُعدّ ذا قيمة أخلاقية، بل لا بدّ من أن يكون تقديم الشيء بحقه. كما ورد في مصباح الشريعة عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: «أَصْلُ الْإِثَارِ تَقْدِيمُ الشَّيْءِ بِحَقِّهِ»³. فأصل الإيثار هو تقديم الآخر أو الغير على النفس، ولكن بشرط أن يكون هذا التقديم في طريق الحق، لا الباطل، وإلاّ يصبح من الإيثار السلبي.

من مصاديق الإيثار

1. الإيثار في المال

عن الإمام الصادق (عليه السلام): «امْتَحِنُوا شِيعَتَنَا عِنْدَ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ كَيْفَ مُحَافَظَتُهُمْ عَلَيْهَا، وَإِلَى أَسْرَارِنَا كَيْفَ حِفْظُهُمْ لَهَا عَنْ عَدُوِّنَا، وَإِلَى أَمْوَالِهِمْ كَيْفَ مُوَاسَاتُهُمْ لِإِخْوَانِهِمْ فِيهَا»⁴.

¹ سورة الحشر، الآية 9.

² سورة الأعلى، الآيتان 16 - 17.

³ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج68، ص147.

⁴ الحميري القمي، قرب الإسناد، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، إيران - قم،

1413هـ، ط1، ص78.

إنّ هذه المادّة الثالثة في الامتحان تعني كَيْفِيَّة تعامل الشيعة مع إخوانهم المحتاجين؛ هل يشاركونهم ويقاسمونهم أموالهم؟ هل يفتحون قلوبهم وأيديهم للمحتاجين؟ إنّ هذا ما أراده الإمام بالمواساة في المال.

2. الإيثار في النفس

قال -تعالى-: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾¹.
تعرض هذه الآية صورة رجلٍ باع نفسه لله سبحانه، لا يريد إلّا ما أراده الله -تعالى-، لا هوى له في نفسه، ولا اعتزاز له إلّا برّبّه، ولا ابتغاء له إلّا مرضاة الله -تعالى-. وفي الروايات أنّها نزلت في أمير المؤمنين (عليه السلام)، في شأن مبيته في فراش النبي (صلّى الله عليه وآله) ليلة الهجرة². وذلك مقابل صورة أخرى عرضتها آية سابقة عليها لرجلٍ معترٍ بإثمه، معجبٍ بنفسه، متظاهرٍ بالإصلاح، مُضْمِرٍ للنفاق: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَهُلْكَ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾³. ويظهر من المقابلة كيف أنّ الإيثار يُسهم في إصلاح المجتمع، وينبع من تقديم رضا الله على رضا النفس، وكيف أنّ الاستثثار والطمع يُسهم في إفساد المجتمع، وينبع من عزّة الهوى وحبّ النفس.

3. الإيثار في الدعاة

ومّا ورد من أدب أهل البيت (عليهم السلام) في المقام، ما رُوِيَ عن الإمام الحسن (عليه

¹ سورة البقرة، الآية 207.

² راجع: العياشي، تفسير العياشي، مصدر سابق، ج 1، ص 101.

³ سورة البقرة، الآيات 204 - 206.

السلام) من قوله: «رَأَيْتُ أُمِّي فَاطِمَةَ (عليها السلام) قَامَتْ فِي مَحْرَابِهَا لَيْلَةً جُمُعَتِهَا، فَلَمْ تَزَلْ رَاكِعَةً سَاجِدَةً، حَتَّى اتَّصَحَّ عَمُودُ الصُّبْحِ، وَسَمِعْتُهَا تَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَتُسَبِّحُهُمْ وَتُكَثِّرُ الدُّعَاءَ لَهُمْ، وَلَا تَدْعُو لِنَفْسِهَا بِشَيْءٍ، فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّاهُ، لِمَ لَا تَدْعِينَ لِنَفْسِكَ كَمَا تَدْعِينَ لغيرِكَ؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، الْجَارُ ثُمَّ الدَّارُ»¹.

آداب الإيثار

للإيثار آدابٌ لا بدّ من مراعاتها لتحقيق نصاب الإيثار الذي يؤجر عليه الإنسان، منها:

1. الإخلاص

فلو وهب الإنسان إنساناً آخر شيئاً هو بحاجة إليه، لكن بدافع غير إلهي، يكون في الواقع كمن قدّم ذلك الشيء إلى نفسه، إذ هو في حقيقة الأمر قد استجاب إلى دافعه النفسي، وأنايتته هي التي دفعت به إلى هذه الممارسة، وهي الحافز الكامن وراءه، وليس رضا الله عزّ وجلّ.

2. تقديم الأقرباء

من الآداب الأخرى للإيثار، تقديمُ أولي الأرحام والأقرباء بشكلٍ عامّ، كما قال -تعالى-: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾².

3. تقديم أهل الإيمان

وهو ما يمكن فهمه من قول الإمام عليّ (عليه السلام): «عَامِلٌ سَائِرِ النَّاسِ بِالْإِنْصَافِ،

¹ الشيخ الصدوق، علل الشرائع، مصدر سابق، ج1، ص182.

² سورة الأحزاب، الآية 6.

وَعَامِلِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِثَارِ»¹.

4. تقديم الأحوج

إنَّ تأمين الاحتياجات الثانوية للآخرين على حساب التضحية بالاحتياجات الأساسية للمؤثر نفسه، لا يُعَدُّ حقًّا، ولا يندرج في عِدَادِ الْقِيَمِ. من هنا، جاء عن الإمام عليّ (عليه السلام): «لَا تَسْتَأْثِرَ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَحْوَجُ إِلَيْهِ مِنْكَ»².

¹ التميمي الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، مصدر سابق، ص 467.

² الحسين بن سعيد الكوفي، المؤمن، تحقيق ونشر مدرسة الإمام المهديّ (عليه السلام) بالحوزة العلمية، إيران - قم، 1404هـ، ط1، ص 45.